التّحرير الوطني من منظور الشيخ مُحَمَّد البشير الإبراهيمي

National liberation from the perspective of Sheikh Muhammad al-Bashir al-Ibrahimi

د/ قندل جمال
أستاذ التعليم العالي
– جامعة الشلف –
djamel.65kendel@gmail.com

الملخص: شكلت عملية إعادة تحرير الأوطان العربية من نير الاحتلال وهيمنته محور اهتمام العلماء والمفكرين ورجال الإصلاح على مدار فترات التاريخ .وقد انضوى موضوع دراستنا ضمن هذا السياق حيث أن الشيخ الإبراهيمي، لم يشذ عن هذا المسعى باعتباره عالما ومفكرا ملتزما بقضايا أمته، على صرف طبيعتها ومستوياتها لذلك ظل باحثا في أدواء الجزائر و تداعياتها على الفرد والمجتمع على حد سواء راهنا ومستقبلا وناظرا بعمق محللا وناقدا لتجارب الشعوب و الأمم يرنو فهمها والإفادة منها.

وقد حظيت إشكالية التحرير الوطني ،باهتمام خاص من طرف الشيخ الابراهيمي،لأهميتها من زوايا مختلفة وجوانب متعددة،بادئا بالمنطلق ومحددا للآليات الكفيلة بإنجاح فكرة التحرير،كما بحثنا في الدراسة مساهمة الإبراهيمي في تعزيز ودفع الثورة الجزائرية،التي تعاطى معها بصورة إيجابية بداية من الثاني نوفمبر1954

الكلمات المفتاحية الاحتلال الفرنسي – الإصلاح– العلماء – التجارب – التحرير الوطني – الإبراهيمي.

.

Abstract: The process of re_liberating the arab countries from the occupation and its domination has been the focus of attention of scholars ,thinkers, and men of reform throughout history.
The subject of our study has fallen within this context ,as sheikh el Ibrahimi did not deviate from this endeavor,as a scholar and thinker committed to the issues of his nation, despite its nature and degree ,so he remained as a researcher in the diseases that plagued Algeria and its repercussions on the individual and society alike,now and in the future ,and looking deeply ,analyzing and criticizing the experiences of peoples and nations,seeking to understand and benefit from them .
The question of national liberation, has received special attention from sheikh El Ibrahimi,due to its importance from different angles and multiple aspects ,beginning with the starting point defining the mechanisms to ensure the success of the idea of liberation.
We also examined in the study the contribution of El Ibrahimi to the promotion and push of the Algerian revolution which he dealt with in a positive manner starting from the second of November 1954

Keywords French occupation –reform–scholars –experiences– national liberation El Ibrahimi

مقدمة :

شهد العالم العربي و الاسلامي خلال القرنين الثامن عشر و التاسع عشر، حركة احتلال واسعة، تباينت شكلا و اتفقت مضمونا، كما اختلفت من حيث الشدّة والقوة .غير أن اللافت في المسألة أن القوى المستعمرة اعتمدت آليات كثيرة و متنوعة بغرض توسيع الاحتلال و تعميقه ليغطي نطاق الجغرافية الطبيعية، باعتبارها المجال الحيوي لتكريس الهيمنة، في مقابل الهدم الشامل لمختلف البنى للدول الخاضعة للاحتلال، باعتماد الخيار الأمني القائم على القوة و القمع بدرجة رئيسة.

وقد عاش الشيخ مُحَّد البشير الإبراهيمي فترة الاحتلال الفرنسي ورأى عن كثب جلد مؤسسات الاحتلال في الاجتهاد، رغبة في إيجاد البدائل الكفيلة بتكريس الهيمنة الشاملة و السيطرة الكاملة، من

خلال ضرب المقاومة كرغبة قائمة في النفوس وفكرة دافعة وضاغطة، على نحو يفضي إلى شل الإرادة بشكل متدرج. والإشكالية الرئيسة في هذا السياق،تنطلق من مجال رؤية الشيخ الإبراهيمي لقضية التحرير الوطني باعتبارها قضية رئيسة للتخلص على نحو نهائي من الهيمنة و الاحتلال الأجنبي ؟ وما الآليات التي اعتبرها كفيلة بإنجاح مهمة التحرير الوطني ؟

إن الإجابة على الإشكالية المحورية عبر جنبات هذه الدراسة، ترنو تقديم قراءة لفلسفة الشيخ مُحَمَّد البشير الإبراهيمي في التغيير المفضي إلى التحرير الوطني،وهو ما عالجناه وفق منهج تاريخي توخى تتبع الوقائع والأحداث ووصفها في ضوء سياقها الزمني،انطلاقا من المعطيات المشكلة للوقائع،و فق نسق قائم على التحليل والنقد.

1- التحرير مبدأ و منطلق

آمن الشيخ الإبراهيمي بضرورة وجوب خدمة الأوطان وتحريرها من كافة أشكال الاستبداد والطغيان، ولعل الاحتلال الفرنسي الجاثم على أديم الجزائر، دون وجه حق،منذ الخامس جويلية 1830 شكّل مدار اهتمام العلماء، بالنظر إلى التداعيات السلبية التي أنتجها، حتى غدا الشعب الجزائري أسير الجهل، معطّل الفكر و مشلول الإرادة، حيث أخذ العلماء على عاتقهم وعلى رأسهم الإبراهيمي مهمة غاية في الصعوبة، تمثلت برأيه في مواجهة استعمارين جثما على صدور الجزائريين، دون وجه حق، حيث تمثل الأول، في الاستعمار الداخلي الذي مثله الجهل الذي أشاعه الطرقيون أو الوجود المرابطي، من خلال التأثير على المجتمع الجزائري،بصورة جعلت الفرد أسير تصورات خاطئة،حالت في الكثير من الأحيان دون حراكه، فيما تمثل الثاني في الاحتلال الاستيطاني الفرنسي الذي أشاع في الجزائر الفساد،على اختلاف طبيعته، حتى يتأتى له إحكام قبضته و بسط هيمنته [1]. ولذا فإن تحقيق الانتصار على الاستعمار الداخلي ، يشكل المدخل الرئيس لمواجهة الاستعمار الخارجي الذي كان يكن العداء للجمعية و يظهره بمعية أنصاره و صنائعه، لا لشيء إلا لأن الجمعية وقفت بينهم وبين الأمة سدّا منيعا و فضحت سرائرهم و ما يبيتون للإسلام و العربية في الجزائر من كيد[2] . وقد لخّص الإبراهيمي رؤيته لتحرير الأوطان، في قوله:"..و إن تحرير العقول لأساس لتحرير الأبدان، و أصل له،و. محال أن يتحرر بدن يحمل عقلا عبدا"[3].

كما اعتبر في الآن ذاته، مسألة تحرير العقول الرامية إلى إيقاظ الأمة من خلال بعث القوة فيها، باتجاه التمييز بين الصالح من الرجال و الصحيح من المبادىء و بين الطالح و الزائف منها، الأمر الذي يجعل المهمة غاية في الصعوبة، لأن هذا النوع من التحرير يتطلب نفسا طولا و جهدا كبيرا و مضنيا، ولا يقدر على القيام به و لا يقوى عليه إلا العلماء الربانيون المصلحون، على اعتبار أنه أثر طبيعي للإصلاح الديني الذي أخذته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على نفسها بقوة وصدق [4].

2- مجال حركة ونشاط الشيخ الإبراهيمي

أ- نشر العلم و مواجهة الطرقية

ظل الشيخ الإبراهيمي رفقة علماء و دعاة الجمعية يسعون إلى كسر طوق الجهل[5] الذي تفشى بين الجزائريين على نحو كبير، بالتركيز على مسألتي التربية و التعليم، باعتبارهما حجر الزاوية في أي عملية تغييرية،ولإنجاح المهمة، كانت الانطلاقة من التعليم المسجدي كخطوة أولى، ثم تلتها الخطوة الأخرى، ممثلة بالمدارس الحرة التي أنشأتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، عبر امتداد مناطق الجزائر، حتى بلغت إلى غاية سنة 1954،ستمائة مدرسة، يؤطرها معلمون و أساتذة مؤهلون.

وقد أدرك الإبراهيمي بنظرته الثاقبة،أهمية التعليم وضرورته في مواجهة سياسة التجهيل التي اعتمدها الاحتلال الفرنسي بغرض ترسيخ وتعميق و إنجا ح الأهداف التي رسمت من طرف قيادة الاحتلال .غير أن ما يدعو للإشارة، أن الطرقيين شكّلوا أداة بيد الاحتلال الفرنسي من حيث دعوتهم الفردية و الجماعية على حد سواء، الأمر الذي أكسبهم مع مرور السنوات سلطة معنوية على الشعب الذي كان يتخبط في الجهل.وقد ذكر الشيخ الإبراهيمي، في معرض حديثه عن الطرقية و سلطتها و الفساد الذي أشاعته، "إن الطرقية في صميم حقيقتها، احتكار لاستغلال المواهب و القوى،و استعمار بمعناه العصري الواسع، و استعباد بأفظع صوره و مظاهره"[6].

ولم يتوقف الإبراهيمي عند هذا الحدّ، بل راح يشرح حال أمة الإسلام في مواقع كثيرة، ويدرس راهنها و يستشرف مستقبلها في ظل استمرار الاحتلال الطرقي، حيث ذهب في هذا الصدد، إلى القول:" ..ومع أننا نعلم أن الطرق منتشرة في العالم الإسلامي و أن آثارها فيه متشابهة ،و أنها هي السبب

الأقوى في كثير مما حل به من الأزراء و النكبات، وكثيرا ما كانت مفتاحا لاستعمار ممالكه، فإن حربنا موجهة أولا وبالذات إلى طرق الشمال الإفريقي"[7].

في ضوء ذلك، فإن العملية لم تكن ميسورة قطّ، لوجود معوقات كثيرة و مثبطات مختلفة، نتيجة تراكمات تاريخية، جعلت الأمد يطول على تلك الطرق، حتى شاب الوالد وشب الولد،وغدت الأسماء المروجة لأصحاب الطرق، ذات إجلال وقداسة.[8]

انبرى الإبراهيمي و من سلك مسعاه من أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فاضحا لباطلهم على مرأى و مسمع من الناس، ومحررهم من قبضتهم و سلطانهم، حتى ينفض الناس من حولهم، كما أنكر عليهم صنيعهم بالدليل من صريح القرآن وصحيح السنة وسير الأعلام و السلف،غير أنهم تشبثوا بمواقفهم وعضوا على أفكارهم و معتقداتهم بالنواجذ، بل راحوا يؤلبون الناس على العلماء، وعلى رأسهم الإبراهيمي الذي مضى يقول على تداعيات إنكاره لهم،:"..وذلك أننا لما أنكرنا عليهم باطلهم الذي يرتكبونه باسم الدين، زعموا أن الطريق هي الدين، ولما نقضنا لهم هذه الدعوى، تنزلوا فزعموا أن لها حبلا واصلا بالدين وسندا متصلا بالسلف، ولما بينا لهم أن الحبل مقطوع و أن السند منقطع قالوا،إن هذه الطرقية مرت عليها قرون ولم ينكرها العلماء، فبينا لهم أن عدم إنكار العلماء الباطل لا يصيره حقا، ومرور الزمن عليه لا يصيره حقا،وقلنا لهم إذا كان سلفكم مثل أعمالكم فهم مبطلون مثلكم ..."[9] .

وصرخ الشيخ الإبراهيمي، معلنا رفضه المطلق للباطل الذي ما انفك يسوقه الطرقيون و يسعون لإشاعته بين الناس، رغبة ورهبة،لتعميق تمكينهم، بعد أن أدركوا الخطر المحدق بهم، بعد تأسيس جمعية العلماء، لذلك حاربوها، بإيعاز ودعم من سلطة الاحتلال، التي يخدمها التمزق و الغرق وسط الجهل و الغزو الذي تمارسه الطرقية، الأمر الذي يحول دون التفكير في التحرير الوطني.حيث أبان الإبراهيمي عن طول و استمرار المواجهة بين التحرر الذي تمثله الجمعية القائمة على العلم و التربية، و بين الاحتلال الذي تمثله الطرقية الراغبة في استمرار الطوق المضروب على الشعب،محذرا في هذا الصدد، بقوله:" ..أما أن يعبثوا بالدين، كل هذا العبث،وبما حرم الله من أعراض المسلمين و أحوالهم ، ثم يريدون أن نسكت،كما سكت العلماء من قبلنا، فلا و الله و لاكرامة"[10] .

و قد أثمرت جهود الشيخ الإبراهيمي في تنقية العقول و تزكية النفوس، نتائج كبيرة ومشهودة، تجلّت أماراتها في الإقبال على التعليم في مدارس جمعية العلماء المسلمين[11] على امتداد مناطق الجزائر، من البنين و البنات، على اعتبار أن الإبراهيمي لم يهمل المرأة الجزائرية، من العمل التربوي و التعليمي القاعدي،

لتنشئتها التنشئة السليمة، حتى تسهم بدورها في صياغة عقلية الفرد الجزائري صياغة صحيحة ومدركة لأبعاد المهمة الرسالية الواجب الاضطلاع بها.وقد ميز في موضوع المرأة، بين مرحلتين، أو بالأحرى بين "فجرين: فجر كاذب و آخر صادق" كما سماهما في مداخلة له بمصر، بعد أن ألحّوا عليه، على أن يحدثهم حول موضوع المرأة[12].

واعتبر الفجر الكاذب، المرحلة التي ولجتها المرأة الجزائرية، من خلال طرقها أبواب المدارس الفرنسية،ورغم بعض النجاحات الجزئية، إلا أن مسيرتها توقفت عند ذلك الحدّ.أما الفجر الصادق، حسب الشيخ الإبراهيمي، فقد ارتبط بظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي لم تُميز في العملية التعليمية بين البنين و البنات،[13] بل ما فتئت تحض الأولياء على ضرورة تعليم بناتهم، وكان لدعوتها استجابة واسعة، عكست عمق الثقة التي باتت تحظى بها وإيجابية التفاعل المجتمعي معها .

ب- تأسيس الصحف و المساهمة الفكرية

اهتم الشيخ الإبراهيمي بالصحف و المجلاّت، تأسيسا و دعما، إدراكا منه لدور الإعلام في التعريف بفلسفة الجمعية في التغيير المجتمعي و مبادئها ، فضلا عن نشرها للفضائل في المجتمع الجزائري، وقد كانت البداية بجريدة" المنتقد"[14] التي كانت حادة جدا، من حيث انتقادها لتصرفات و أعمال إدارة الاحتلال الفرنسي التعسفية تجاه الشعب الجزائري، كما كانت في الان ذاته فاضحة للطرقية و الطرقيين وكاشفة لانحرافهم،ومحذرة للشعب من مغبة السير وراءها .

وبعد حل "المنتقد" ظهرت جريدة"الشهاب"،حيث كانت في البداية، أسبوعية،ثم تحولت إلى مجلّة شهرية،ثم جريدة"البصائر"، في خطوة تعكس إصرار جمعية العلماء ورغبة أعلامها في تطوير الأداء الإعلامي شكلا وموضوعا، حتى يتأتى له تحقيق الأهداف المرسومة.

وقد كانت للشيخ الإبراهيمي إسهامات فكرية متنوعة وعديدة، عالج فيها قضايا سياسية، دينية، اجتماعية و اقتصادية، من منظور جمعية العلماء المسلمين، حيث دعا سنة 1950من خلال مقال له في جريدة البصائر، جاء موسوما بـ" ويحهم ..أهي حملة حربية؟"، الشعب الجزائري إلى ضرورة الأخذ بأسباب القوة، كحل أساس لتغيير واقع الجزائريين ، بعد أن حلّل الحالة التي بات يحياها الجزائري بالقول :" لك الله، أيها الشعب المعذب، لقد هنت عليهم حين هنت على نفسك،إنهم ما ضربوك إلا بعد أن جربوك، وما جرفوك إلا بعد أن عرفوك، وما جنوا عليك و اتهموك إلا بعد أن قرأوك و فهموك، فلا تلمهم، ونفسك

فلُم، و غير ما بنفسك...إن القوم لا يدينون إلا بالقوة، فاطلبها بأسبابها، و أقوى أسبابها العلم،و أوسع أبوابها العلم،فخذهما بقوة تعش حميدا، وتُمت شهيدا"[15].

و في خطوة أخرى،كانت أشدّ وطأة على سلطات الاحتلال الفرنسي، انبرى الإبراهيمي مدافعا عن وجوب فصل الدين عن الدولة، ورفع اليد على نحو نهائي عن كل شأن من شؤون الإسلام في الجزائر،ومهددا في الآن ذاته الاحتلال من التمادي في سياسة الهروب إلى الأمام من خلال الاستئناس بموقف المجلس الجزائري من قضية فصل الدين عن الدولة.حيث قال الإبراهيمي في هذا السياق:" وكان في هذا المجلس كثير من اسمه مُحَمَّد وهو عدو لمحمد و دين مُحَمَّد..وما ظن الاستعمار بجمعية العلماء؟ أيظن أنها تمل و تكل فتضعف فتستكين؟ لا و الله، ولقد خاب ظنّه وطاش سهمه، إنما يكل من كان في ريب من أمره و في عماية من عـ مله، أما من كان من أمره على بينّة و من عمله على بصيرة، ومن ربه على عهد فهيهات لما يظنّه به الظانون ،و إن جمعية العلماء لفي موقفها الثابت، و على عقيدتها الراسخة، وفي ميدانها لفسيح من الكفاح.."[16].

3- تفاعل الشيخ الابراهيمي مع الثورة

تجاوب الشيخ الإبراهيمي، على نحو إيجابي مع نداء الثورة،الرامي إلى التحرير الوطني واستجاب لصرخة الجهاد التي دوت في ربوع الجزائر، في الفاتح نوفمبر 1954.وقد شكّل ذلك، سانحة ثمينة لطالما انتظرها الشيخ الإبراهيمي، وهو ما أزّه باتجاه الأخذ بيد المجاهدين في الجزائر. وحول التفاعل الإيجابي مع الفعل الثوري، ذهب المؤرخ أبو القاسم سعد الله، إلى القول :" يبدو لنا أن الشيخ الإبراهيمي، كزعيم وطني، كان الوحيد الذي لا ينحرف عن الخط الذي لرسمته الجمعية كما انحرف غيره من الزعماء عن الخط الذي رسمه تنظيمهم... وعندما أعلن الشعب ثورته، كان الشيخ الإبراهيمي، أول من احتضنها من الزعماء بالخصوص مصالي و عباس، رغم أنه كان في المشرق، بعيدا عن الوطن..."[(17)].

و بذلك يكون الشيخ الإبراهيمي أول شخصية رسمية جزائرية، تعلن مباركتها للثورة ومساندتها لكفاح الشعب الجزائري، من أجل التحرير و استعادة الاستقلال الوطني. في الوقت الذي جنحت فيه الأحزاب والتشكيلات السياسية الأخرى، الناشطة في الساحة، إلى التنديد بالعمل الثوري والدعوة عبر مختلف المنابر إلى الإصلاحات السياسية، الاقتصادية، والاجتماعية الكفيلة بإطالة عمر الاحتلال، فضلا

عن سعيها باتجاه العمل من أجل المشاركة في العملية الانتخابية، رغم نداءات جبهة التحرير الوطني بضرورة الكف عن تلك الممارسات، الضارة بالثورة و العمل على إدارة الظهر للنضال ضمن الشرعية الصورية التي ما فتىء يوفرها الاحتلال، والتي لم تكن قطّ، إلا وسيلة لشرعنة الاحتلال لا غير.

و لعل ما يدعم ما ذهبنا إليه و يؤكده هو الوثائق ذات الصلة بالموضوع، حيث صدر بيان في القاهرة بإمضاء كل من الشيخ مُحَمَّد البشير الإبراهيمي، والفضيل الورتلاني بتاريخ 2 نوفمبر 1954 و نشرته الصحافة المصرية و كذا وكالات الأنباء العالمية بتاريخ 3 نوفمبر 1954[18].

وهو ما أكسب الجمعية في الخارج، السبق في مباركة و مساندة الثورة في الجزائر، على خلاف زعماء التنظيمات السياسية الأخرى الناشطة في الساحة [19]. و هو ما يؤشر على عمق فهم قيادة الجمعية لمتطلبات المرحلة، ولهذا جاء البيان مساندا للثورة في الجزائر، بعد أن تناهى إلى سمع الشيخين نبأ لهيب ثورة اندلع في عدّة جهات من القطر الجزائري. و لعل تعاطي الوسائط الإعلامية المختلفة مع ما وقع في الجزائر، من حيث تتبع الوقائع، زمانا و مكانا، جعل الشيخين يتوقان لهذا اليوم المشهود و قد عبرا عن ذلك بالقول:" فخفقت القلوب لذكرى الجهاد... واهتزت النفوس طربا لهذه البداية التي سيكون لها ما بعدها... إن اللحن الذي يشجي الجزائري، هو قعقعة الحديد في معمعة الوغى، و أن الرائحة التي تعطر مشامه هي رائحة هذه المادة التي يسمونها البارود ... "[20].

و قد ذكّر البيان، بالسياسة البليدة التي حكمت بها فرنسا شمال إفريقيا، و تحدث عن الانفجار في كل من تونس و المغرب، و عدم تعاطي فرنسا على نحو إيجابي مع تلك الثورة التي اشتعلت في تلك الربوع، نتيجة الوعي الذي كان عليه أهلها. و قد عكس البيان مدى متابعة الشيخين للواقع في الأقطار المغاربية الثلاثة، عن كثب. و لعل ما مكنهما من ذلك، هو الحرص على الاهتمام بقضايا العرب و المسلمين، عبر مختلف الأصقاع، انطلاقا الرابطة العقدية التي توجب صرف الاهتمام إلى ذلك، فضلا عن وجود زعماء الحركات التحررية في المغرب و تونس بالقاهرة، حيث يقيم الشيخان. وقد سجل البيان بارتياح الثورة في تلك الأقطار، من خلال القول:" تأجج اللهيب بتونس فقلنا : هذا نذير من النذر الأولى، وعسى أن تكون لفرنسا فيه عبرة، و تأجج في مراكش، فقلنا: عسى أن يكون لها فيه مزدجر، و هاهو ذا يتأجج في الجزائر... فلماذا تلوم فرنسا الناس إذا اعتقدوا أن حياتهم مشروطة بموتها.. "[21].

و رغبة في رفع معنويات الشعب المجاهد في الجزائر، طفق البيان في تقديم وصف فرنسا الاستعمارية التي جثمت على أرض الجزائر، ظلما و عدوانا، بالضعيفة التي باتت تكثر الشكوى في مواقع شتى مما يحصل

في الجزائر. و قد جاء ذلك من خلال القول:" إن أعداءنا الأقوياء بالأمس، هم اليوم ضعفاء، وقد أصبحوا يلوذون بأكناف الأقوياء، لذلك نراهم في هلع دائم... وعلامة ضعف الضعيف أن يكثر الحديث عن قوته..." [22].

و حمل البيان تخوف الشيخين من أن يؤول الجهاد الذي أعلنته الحركات المتأججة في المغرب العربي، إلى الانطفاء، و هو ما لا يرجوانه، ذلك أن العمل التحرري يحتاج إلى لفتات صادقة من حكومات المشرق العربي بالإمداد و التشجيع. وقد عبرا عن ذلك بالقول:" إن أخشى ما نخشاه على هذه الحركات أن تشتعل ثم تنطفئ لعدم الوقود ولو أن أغنياءنا في المشرق مم ينفقون الملايين على شهواتهم الشخصية ، أنفقوا ذلك في سبيل إخوانهم المعذبين لتحررت أرض المغرب كلها و معها فلسطين.. الثورة"[23].

و أشاد البيان في الأخير، بتصريحات الرئيس جمال عبد الناصر، واعتبرها بوارق لاحت في الأفق "ستتبعها صواعق تنقض على الاستعمار الفرنسي، فتدكه دكا، و إنا لواثقون أنها لا تضيع هباء في الهواء معتقدون أن لكل كلمة من تلك الكلمات موقعا مكينا من كل نفس من إخوانهم في المغرب العربي "[24].

لم يكتف الشيخ البشير الإبراهيمي، بالبيان الأول فحسب، بل واصل تتبعه لأحداث ووقائع الثورة التي اشتعل لهيبها في الفاتح نوفمبر. حيث أنه و بعد عشرة أيام، على تفجير الثورة أصدر بيانا ثانيا بتاريخ 11نوفمبر 1954وزع على الوسائط الإعلامية المصرية و كذا وكالات الأنباء، [25]حتى تنشره على نحو واسع، ليعلم الرأي العام العربي و الإسلامي، و الغربي على حد سواء، ما وقع في الجزائر.

و يبدو لنا أن المدة بين البيانين الأول والثاني، و المقدرة بأحد عشر يوما، خصصها الشيخان الإبراهيمي و الورتلاني لتقصي حقيقة الوقائع، تقصيا مبنيا على البحث الدقيق والموضوعي، حتى يكون دعمهما للثورة، قائما على أساس من العلم الصحيح الذي يشمل الأشخاص الذين أشعلوا فتيلها، و اهدافها القريبة والبعيدة، فضلا عن مشروعها.

و قد جاء البيان السالف الذكر، تحت عنوان" **أوسع المعلومات عن بداية الثورة في الجزائر بيان مكتب جمعية العلماء الجزائريين بالقاهرة**". و بالعودة إليه، تصفحا و تدقيقا، ندرك عمق استعداد الجمعية لرؤية هذا اليوم المشهود في تاريخ الجزائر، بعد أن طال ليل الاستعمار وبلغ فيه الظلم مبلغا خطيرا. و قد أوضح الشيخ الإبراهيمي أنه" نحن الجزائريين الموجودين خارج الجزائر، كنا نترقب هذه الثورة و نتوقعها، نترقبها لأنها الأمل الوحيد في تحريرنا من العسف الفرنسي... "[26]. أما توقعه للثورة في الجزائر، فقد عزاه الإبراهيمي إلى " أن فرنسا لا تفهم إلا هذه اللغة و لا يفتح آذانها إلا هذا الصوت "[27].

و بالنظر إلى افتقار الشيخ الإبراهيمي للمعلومات الخاصة بتفجير الثورة، فإنه أعاد نشر البيان الذي نشرته جريدة المصادر، لسان حال جمعية العلماء المسلمين في الجزائر. حيث نأى بنفسه استقاء المعلومة من المصادر الفرنسية المضللة للرأي العام في الجزائر و في الخارج على حد سواء، إدراكا منها لأهمية المعلومة في صياغة و بلورة الأفكار التي تشكل أساس المواقف. خاصة إذا علمنا أن بيان الحاكم العام في الجزائر"روجيليونير" شكل بنسبة كبيرة مصدر الكثير من وسائل الإعلام في الجزائر و في الخارج، بل حتى بعض قادة الثورة، عادوا إلى البيان نفسه، لمعرفة حقيقة ما وقع. فلولا البيان لما عرفوا أن الثورة قد اندلعت ونجحت في الأماكن الأخرى، نظرا لغياب وسائط الاتصال بين القادة.

و في الخامس عشر نوفمبر 1954،أصدر الشيخان الإبراهيمي و الورتلاني في القاهرة،بيانا إلى الشعب الجزائري، ومجاهدي جيش التحرير الوطني، وناشد الجميع بالإقبال والاستمرار على طريق الجهاد و العمل على عدم التراجع عنه قيد أنملة. وقد جاء تحت عنوان دافع، محفز، ومحرض على القتال "نداء إلى الشعب الجزائري المجاهد... نعيذكم بالله أن تتراجعوا... "[28].

و قد انطوى البيان على تحفيز باتجاه المضي نحو طريق الجهاد، لا لشيء إلا " لأنه هو الصوت الذي يسمع الآذان الصم،.. ويفتح الأعين المغمضة، وهذه هي اللغة التي تنفذ معانيها إلى الأذهان البليدة.. "، ثم راح يذكر الجزائريين ببلايا الاستعمار الفرنسي، وكيف أن العالم كان يتعجب لعدم الثورة عليه. خاصة و أن فرنسا ما فتئت تسوق الشباب الجزائري ليقاتل في سبيل فرنسا و يموت في غير شرف ولا مُجَّدة. ولو أن أولئك ماتوا في سبيل الجزائر، لماتوا شهداء. وقد وظف الشيخ الإبراهيمي التاريخ، إدراكا منه لدوره الرئيس في التعبئة و التحريك باتجاه الالتفاف حول فكرة الثورة و بعث الحماس في النفوس، حتى يقبلوا على القتال في سبيل الله على طريق استعادة الاستقلال بإيمان قوي و إرادة كبيرة. حيث وقف عند محطات كثيرة، في تاريخ الجزائر، وأحسن الربط بينها، للوصول إلى ترسيخ القناعة لدى الشعب بأن الجهاد هو ا لحل البديل للاحتلال و لا حل سواه. ونلمس ذلك بشكل جلي في السياق، عندما عاد بالذاكرة إلى الفترة إلى حارب فيها الجزائريون إلى جانب فرنسا، وفي سبيل بقائها، مدة تعادل نصف المدة التي استغرقتها المقاومة الوطنية العسكرية للاحتلال. بيد أن فرنسا لم ترع جميلا ولم تكافئ بجميل صنيع الجزائريين معها. و ما وقع في شهر ماي 1945خير دليل على أن فرنسا لا تراعي دينا ولا عهدا، ولا قانونا و لا إنسانية. [29]

ثم ينتقل البيان إلى التذكير بعدم الخوف من الموت، على اعتبار أنه كتاب مؤجل، حتى يبعث القوة في نفوس المجاهدين، ليثبتوا في مواجهاتهم الدموية مع قوات الاحتلال على امتداد مناطق الجزائر، وحتى يقبل

الآخرون الذين لم يلتحقوا بالقتال، على ساح الوغى، من غير تردد أو إدبار. وقد عبر عن ذلك بالقول :".. إنكم كتبتم البسملة بالدماء، في صفحة الجهاد الطويلة العريضة، فاملأوها بآيات البطولة التي هي شعاركم في التاريخ وهي إرث العروبة و الإسلام فيكم **ما كان للمسلم أن يخاف الموت.. فسيروا على بركة الله وبعونه وبتوفيقه إلى ميدان الكفاح المسلح، فهو السبيل الواحد إلى إحدى الحسنيين، إما موت وراءه الجنة، و إما حياة وراءها العزة و الكرامة** ". (30)

ثم استشهد بآيتين من القرآن الكريم، للتأكيد أكثر على وجوب القتال اليوم و ليس غدا، طالما أنه قد أعلن، كما بشرهم بالنصر الأكيد. مذكرا الجميع بقول الله تعالى :" جاهدوا في سبيل الله بأموالكم و أنفسكم "(31) و قوله تعالى :"كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله و الله مع الصابرين ". (32)

لقد شكل البيان الثالث، نقلة نوعية في تعاطي الشيخ الإبراهيمي مع معطى الثورة في الجزائر، التي كانت بحاجة ماسة إلى فتوى تضفي طابع الشرعية على العمل المسلح في الجزائر، وهو ما من شأنه أن يزيد في إقبال الشعب على التجنيد، استجابة لنداء الشيخ الإبراهيمي الذي يحظى بثقة ووزن كبيرين، ليس في الجزائر فحسب،ولكن على امتداد العالم الإسلامي. بل إن فتواه فتحت الأبواب على مصراعيها أمام الشعوب العربية و الإسلامية التي تلمست فيها الإخلاص و القدرة على إعادة بناء و صياغة الراهن العربي و الإسلامي، الذي أصيب في مقتل بعد حرب 1948 و إعلان قيام دولة إسرائيل (33).

4-الشيخ الإبراهيمي وجبهة تحرير الجزائر :

و في تطور نوعي و لافت، في حراك الشيخ الإبراهيمي الذي لم يألُ جهدا في التنديد بالاحتلال الفرنسي، و الدعوة للثورة عليه التي ما انفك يضيف إليها مفردة "المباركة "، عن طريق البيان أو المداخلات عبر أمواج الأثير، لتصل نقاطا كثيرة و بعيدة من العالم، الذي أضحى دائم الاستماع إلى ما تذيعه من بيانات الشيخ الإبراهيمي إلى جانب مفكرين و علماء آخرين، تزاحموا للدفاع عن الثورة الجزائرية و الدعوة لها، فضلا عن المراسلات الكثيرة التي ما فتئ الشيخ الإبراهيمي يرسلها لرؤساء الدول العربية و ملوكها، ملتمسا منهم تقديم الدعم المادي و المالي والإعلامي للثورة، إلى جانب الحض على الدفع بها باتجاه المؤسسات الدولية، وعلى رأسها هيئة الأمم المتحدة، و هو ما تضمنته مراسلته للملك سعود الفيصل، ملك المملكة العربية السعودية، الذي دعاه إلى " تكليف الأستاذ أحمد بك الشقيري و الأستاذ عبد الرحمن عزام باشا، أو أحدهما بالاستعداد من الآن لمتابعة قضايا الجزائر و الدفاع عنها باسم جلالتكم كعون و تعزيز

لسفارتكم بواشنطن. إن رأيتم هذا و وافقتم عليه، كنتم قد وضعتم القضية في يد محام بارع عالم بأدلتها وبراهينها و محيط بجزئياتها و كلياتها... "[34].

تداعى القادة و المسؤولون المتواجدون في القاهرة، بعد دراسة الأوضاع في الجزائر، دراسة مستفيضة من خلال استعراض كافة المعطيات، في ظل الثورة التي شهدتها الجزائر في الفاتح نوفمبر 1954 و ما يحدث فيها من عدوان عام وشامل، من طرف سلطات الاحتلال الفرنسي التي آثرت الخيار الأمني كأولوية قصوى، في إستراتجيتها للقضاء على الثورة .

وقد انتهى المجتمعون إلى وجوب تشكيل إطار عام وجامع لكافة القوى الوطنية، بخلاف جبهة التحرير الوطني التي لم تكن تضم عند التأسيس سوى عناصر من حركة الانتصار للحريات الديمقراطية. ولهذا كانت الرغبة في إيجاد جبهة أكثر تمثيلا، فضلا عن السعي إلى تشكيل إطار وحدوي. وقد أطلق عليه اسم "جبهة تحرير الجزائر". وكان الشيخ الإبراهيمي الطرف البارز فيها. وقد تضمن الميثاق الخاص بالجبهة، ديباجة و تسعة بنود، تتحدد في الآتي[35].

1-يعتبر الشعب الجزائري على اختلاف أفراده، وهيئاته –فيما يختص بالكفاح الرهيب- كتلة واحدة، هي الأمة الجزائرية. ومن شذّ، شذّ في النار.

2-تسمى الهيئة المنضوي تحت لوائها أبناء الجزائر، المسؤولون المقيمون في القاهرة –"جبهة تحرير الجزائر ".

3-تعمل الجبهة لتحرير الجزائر، من الاستعمار الفرنسي، ومن كل سيطرة أجنبية، مستعملة كل الوسائل الممكنة لتحقيق أهدافها.

4-الجزائر عربية الجنس، مسلمة العقيدة: فهي بالإسلام و العروبة كانت، وعلى الإسلام و العروبة تعيش. وهي في ذلك تحترم سائر الأديان، و المعتقدات و الأجناس وتشهر بسائر النظم العنصرية الاستعمارية.

5-الجزائر جزء لا يتجزأ من المغرب العربي، الذي هو جزء من العالم العربي الكبير، وأن اتجاهها إلى العروبة وتعاونها مع الشعوب، و الحكومات و الجامعة العربية، أمر طبيعي.

6-الإيمان بوجوب توحيد الكفاح بين أقطار المغرب العربي الثلاثة:تونس الجزائر، مراكش

7-جبهة تحرير الجزائر مستعدة من الآن لتندمج في هيئة أجمع و أشمل للأقطار المغربية الثلاثة بنظام يوضع، ومسؤوليات تحدد. وتهيب بالقائمين على الحركات التحريرية في كل من تونس ومراكش أن يضعوا أيديهم في يدها، و أن يعملوا معها على تأسيس هيئة تنظم الجميع.

8-تنتهز الجبهة هذه الفرصة، لتبعث بتحياتها الأخوية إلى سائر المكافحين في الجزائر، سواء منهم من حمل السلاح، أم من كان عاملا وراء الميدان، وإلى المساجين والمعتقلين السياسيين ضحايا القمع و الإرهاب، مترحمة على الشهداء.

9-وتهيب جبهة تحرير الجزائر، في القاهرة بإخوانها في العالمين :العربي و الإسلامي، وبأحرار الدنيا جميعهم ليناصروا الجزائر في كفاحها من أجل حريتها واستقلالها، فهم بذلك يناصرون الديمقراطية الحقّة، و الإنسانية المعذبة، و المبادئ السلمية [36].

وللإشارة فإن "جبهة تحرير الجزائر" ضمت الشيخين الإبراهيمي والورتلاني، عن جمعية العلماء المسلمين، إلى جانب أحمد بن بلة، مُحَمَّد خيضر و حسين آيت أحمد عن جبهة التحرير الوطني، حسين الأحول و امُحَمَّد يزيد عن للجنة المركزية لحركة الانتصار للحريات الديمقراطية، أحمد مزغنة و الشاذلي مكي، عن الحركة الوطنية الجزائرية، وأحمد بيوض عن الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري[37].

وذهب المؤرخ أبو القاسم سعد الله، في سياق البحث في مفهوم التحرر الوطني إلى التوسع في مفهوم التحرير الذي ضيقته القراءات الحزبية الضيقة التي تقصر العمل من أجل التحرير الوطني على العمل العسكري فقط، و تلغي كنتيجة حتمية لذلك، كل عمل بصرف النظر عن طبيعته وعمقه و تأثيره،حيث يذكر :".. فبالعودة إلى الظروف التي ولدت فيها الثورة، سيما منذ سنة 1945، ندرك أن هناك رجالاً كانوا يعدُّون لها بطرق مختلفة، وليس بطريق واحد، فمنهم من كان يعدّ لها بتوفير الأسلحة والتدريب العسكريَ، ومنهم من كان يحضر لها بتدبير المال والوسائل المادية، ومنهم من كان يخطط لها بالتكوين المعنوي وتربية النفوس على حب الوطن والجهاد في سبيله، ولكنهم كانوا جميعا يعتقدون أن "دروسهم" لاعداد الثورة تكمل بعضها البعض، وأنه من الخطإ إعطاء الأولوية لهذا المدرس أو ذاك"[38].

خاتمة

اعتبر الشيخ الإبراهيمي،تحرير الأوطان،مبدأ وأصل لا يسوغ بأي حال من الأحوال،إغفاله أو عدم السعي لأجله،لما يترتب عن ذلك،تداعيات سلبية كثيرة،تزيد من تأزيم الوضع و تراكم التبعات. إلا أن الفكرة من منظور الإبراهيمي ينبغي أن تنطلق من أساس سليم وصحيح،حتى يمكنها تحقيق الأهداف المتوخاة من عملية إعادة التحرير،التي دونها عقبات كأداء.

حيث أسس منطلقه،على البناء الفكري للفرد،من خلال العمل على تحرير العقول من مختلف صور وأشكال الجهل المؤسس للتخلف،والذي كان سببا رئيسا في التمكين للاحتلال الفرنسي،الذي اعتمد مقاربات كثيرة ومختلفة لتكريس الجهل وتعميمه وتشجيع القائمين عليه،لأن العقل الجاهل،معيق للتفكير ومكبل للإرادة وحائل بين الوعي، ولتحقيق مهمة إعادة صياغة الوعي للفرد الجزائري،كان التركيز على التعليم المسجدي،والصحافة،ولمواكبة عملية التحرير،تفاعل الشيخ الإبراهيمي مع نداء الثورة ولبى صرختها ابتداء من الثاني نوفمبر 1954من خلال بيان واضح، أعطى دفعا قويا للفعل الثوري في الجزائر،باعتباره موقفاسياسيا وفتوى شرعية،أكسبته القوة الشعبية في الداخل وحركت الشعوب العربية للتفاعل معها على نحو إيجابي،وظل كذلك يصدر البيان تلو الآخر،حاضاّ ومعززا، ومتنقلا عبر مختلف العواصم العربية والإسلامية،استجلابا للدعم،وكاتبا وخطيبا ومذيعا .

هوامش الدراسة :

[1]- علي مراد ،**الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر من 1925-1940 بحث في التاريخ الديني و الاجتماعي**،ترجمة مُحَّد يحياتن،دار الحكمة للنشر،الجزائر،2007،ص 103.

[2] -طالب الإبراهيمي، **آثار الإمام مُحَّد البشير الإبراهيمي**، ج3،، دار البصائر، الجزائر،2009ص 55.

[3] -نفس المصدر،ص56

[4]- نفس المصدر.

[5]- و ما يؤكد درجة الجهل، نسبة الأمية التي انتشرت بشكل كبير، حيث أنها بلغت 94في المائة لدى الرجال و 98في المائة بالنسبة للنساء. كما يذكر الباحثون في الشأن الثقافي، أن طفلا واحدا من كل عشرة من الجزائريين كان يرتاد المدرسة، ولكن بالمقابل فإن كل الأطفال الأوروبيين في الجزائر، يذهبون إلى المدرسة .أنظر: أبو القاسم سعد الله،**تاريخ الجزائر الثقافي 1954-1962**،ج4، دار البصائر للنشر، الجزائر،2007،ص 13.

[6]- آثار مُحَّد البشير الإبراهيمي المصدر السابق، ج1،ص 172.

[7]- نفس المصدر،ص 174.

[8]-نفس المصدر، ص 173.

[9]-نفس المصدر، ص 174.

[10]-نفس المصدر،ص 176.

[11]- بلغت مدارس جمعية العلماء المسلمين، إلى غاية سنة 1954،أكثر من 150 مدرسة، يتردد عليها أكثر من خمسين ألف طفل و بنت يدرسون فيها مبادىء اللغة العربية و آدابها و أصول الدين الإسلامي و التاريخ الجزائري و الإسلامي.للإستزادة، أنظر:رابح تركي، **الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي و التربية في الجزائر**، منشورات المؤسسة الوطنية للإتصال،النشر و الإشهار،الجزائر،2001،ص 393. وفي محاضرة للشيخ الإبراهيمي بالقاهرة،حول جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ذهب إلى القول في سياق حديثه عن الانجازات، أنها أنجزت مائة و خمسين مدرسة ابتدائية، تضم خمسين ألفا من بنين و بنات، كما أنجزت معهدا ثانويا يضم ألفا وثلاثمائة تلميذ ، وخرجت من مدارسها الابتدائية نحو مائتين وخمسين ألف تلميذ، فضلا عن مشروع محو الأمية، ونوادي التهذيب، وكذا البعثات العلمية إلى جامع الزيتونة في تونس، وجامع القرويين في المغرب، إلى جانب بعثات في مصر، العراق،وسوريا.للإستزادة، أنظر:آثار الإمام مُحَّد البشير الإبراهيمي، المصدر السابق،ج4،ص255.

[12]–آثار الإمام مُحَمَّد البشير الإبراهيمي، المصدر السابق،ج4، ص ص265-266.

[13]– نفسه، ص 265.

[14]– أصدر الشيخ ابن باديس جريدة "المنتقد" سنة 1925،وصدر العدد الأول منها يوم الخميس 2جويلية 1925،وبالنظر إلى راديكاليتها في الطرح، أوقفتها سلطات الاحتلال الفرنسي، بعد أن صدر منها ثمانية عشر عددا.للإستزادة، أنظر: رابح تركي، مرجع سابق،ص 182.

[15]–آثار الإمام مُحَمَّد البشير الإبراهيمي، المصدر السابق،ج3،ص 379.

[16]– نفس المصدر،،ج4،ص ص258-260

[17]– مُحَمَّد البشير الإبراهيمي، **في قلب المعركة**، دار الأمة للنشر، الجزائر، 2007، ص 10.

[18]–– عبد الرحمن شيبان،، حقائق و أباطيل،ط2، دار ثالة للنشر،الجزائر،2009، ص 296.

[19]–راجع في هذا الفصل، موقف الحزب الشيوعي، الحركة الوطنية الجزائرية لمصالي، وكذا موقف الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، حتى تقف الفرق الكامن بين المواقف من جهة وتدرك عمق فهم ووعي الجمعية بمتطلبات الظرف.

[20]–مُحَمَّد البشير الإبراهيمي، مصدر سابق، ص 25.

[21]– نفسه، ص 26.

[22]– مُحَمَّد البشير الإبراهيمي،مصدر سابق،ص27.

[23]–نفسه، ص 28.

[24]– نفسه.

[25]–نفسه.

[26]– مُحَمَّد البشير الإبراهيمي، في قلب... مصدر سابق، ص 29.

[27]– نفسه.

[28]–مُحَمَّد العيد تاورتة، " جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (رد فعل و أسلوب في المقاومة)" ، أشغال الملتقى الوطني للفكر الإصلاحي في الجزائر، بمناسبة ذكرى استشهاد الشيخ العلامة العربي التبسي–رحمه الله –دار الهدى للنشر، الجزائر، 2003، ص 83.

- مُحَمَّد البشير الإبراهيمي، في قلب... ، مصدر سابق، ص 19.
- الفضيل الورتلاني، الجزائر الثائرة، دار الهدى، الجزائر،2011، ص 146.

[29]– مُحَمَّد البشير الإبراهيمي، في قلب... مصدر سابق، ص 20.

[30]–نفسه.

[31])الآية 20من سورة التوبة.

[32])الآية 249 من سورة البقرة.

[33]–مُحَمَّد البشير الإبراهيمي، مصدر سابق، ص ص 50 _51

[34] – مُحَمَّد البشير الإبراهيمي ،مصدر سابق، ص ص43-45. وانظر، كذلك :

- عبد الرحمان شيبان، حقائق و أباطيل، دار ثالة للنشر، الجزائر،2009 ص ص 291-292.
- فتحي الديب، عبد الناصر و ثورة الجزائر،دار المستقبل العربي،مصر،1984 ص 644.

[35]–مُحَمَّد البشير الإبراهيمي، مصدر سابق، ص ص 43-45.

[36]– عبد الرحمان شيبان، مصدر سابق، ص 292.

[37]– تقديم أبي القاسم سعد الله، في كتاب "في قلب المعركة" مصدر سابق .

[38]– نفسه .

المصادر والمراجع :

القرآن الكريم :

الآية 20من سورة التوبة.

الآية 249 من سورة البقرة.

المصادر والمراجع :

-الإبراهيمي(مُحَمَّد البشير) ، **آثار الإمام مُحَمَّد البشير الإبراهيمي**، ج3،، دار البصائر، الجزائر،2009.

-الإبراهيمي(مُحَمَّد البشير) ، **آثار الإمام مُحَمَّد البشير الإبراهيمي**، ج4،، دار البصائر، الجزائر،2009.

– الإبراهيمي (مُحَمَّد البشير) ، **في قلب المعركة**، دار الأمة للنشر، الجزائر، 2007 .

– تركي (رابح)، **الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي و التربية في الجزائر**، منشورات المؤسسة الوطنية للإتصال،النشر و الإشهار،الجزائر،2001.

-الديب (فتحي) ، عبد الناصر و ثورة الجزائر،دار المستقبل العربي،مصر،1984

-الورتلاني (الفضيل) ، الجزائر الثائرة، دار الهدى، الجزائر،2011.

- تاورتة (مُحَمَّد العيد) ، " جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (رد فعل و أسلوب في المقاومة)" ، أشغال الملتقى الوطني للفكر الإصلاحي في الجزائر، بمناسبة ذكرى استشهاد الشيخ العلامة العربي التبسي-رحمه الله –دار الهدى للنشر، الجزائر، 2003، ص 83.

-سعد الله (أبو القاسم) ،**تاريخ الجزائر الثقافي 1954-1962**،ج4، دار البصائر للنشر، الجزائر،2007.

- شيبان (عبد الرحمن) ،، حقائق و أباطيل،ط2، دار ثالة للنشر،الجزائر،2009 .

- مراد (علي) ،**الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر من 1925-1940 بحث في التاريخ الديني و الاجتماعي**،ترجمة مُحَمَّد يحياتن،دار الحكمة للنشر،الجزائر،2007.

جريدة "المنتقد" سنة 1925،وصدر العدد الأول منها يوم الخميس 2جويلية 1925